

موسي بن نصير
وطارق بن زياد

أعلام القادة

obeikandi.com

القائد موسى بن نصير والقائد طارق بن زياد

ولد (موسى بن نصير) سنة ١٩هـ/٦٤٠م في قرية من قرى الخليل في شمال فلسطين تسمى (كفر متری) فتعلم الكتابة، وحفظ القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، ونظم الشعر، ولما كان والده (نصير) قائداً لحرس معاوية بن أبي سفيان ومن كبار معاونيه؛ تهيأت الفرصة لـ(موسى) لأن يكون قريباً من كبار قادة الفتح، وأصحاب الرأي والسياسة، ويرى عن قرب ما يحدث في دار الخلافة.

وشب موسى وهو يشاهد جيوش المسلمين تجاهد في سبيل الله، لنشر الدين الإسلامي في ربوع الأرض، ورأى والده وهو يستعد لإحدى الحروب، وقد لبس خوذته، وتقلد سيفه، فنظر إليه وأطال النظر، وتمنى أن يكون مثل أبيه يجاهد في سبيل الله ويرفع راية الإسلام، وجاءت اللحظة الموعودة لئنال موسى قيادة بعض الحملات البحرية التي وجهها معاوية لإعادة غزو (قبرص) التي سبق أن فتحها معاوية في سنة ٢٧هـ؛ فنجح في غزوها، وبنى هناك حصوناً، ثم تولى إمارتها، وفي سنة ٥٣هـ (٦٧٣م)، كان موسى أحد القادة الذين خرجوا لغزو جزيرة (رودس) التي انتصر المسلمون فيها.

وتمر الأيام والسنون ويتولى مروان بن الحكم الخلافة، ويتحين موسى بن نصير الفرصة ليحقق أحلامه وطموحاته، ففي سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م أمر مروان بتجهيز الجيش للسير به نحو مصر، وزحف الجند مسرعين بقيادة ابنه (عبد العزيز) وصديقه (موسى بن نصير) ووصل الجيش إلى مصر، واستطاع مروان أن يضمها تحت لواء المروانيين الأمويين، ثم غادرها إلى دمشق بعد أن عين ابنه (عبد العزيز) والياً، وجعل موسى بن نصير وزيراً له.

وعاش موسى مع عبد العزيز بن مروان في مصر، فكان موضع سره، ووزيره الأول، يساعده في حكم مصر، حتى ازدادت خبرة موسى في شئون السياسة والحكم، ومات مروان، وتولى الخلافة بدلاً منه ابنه (عبد الملك) وكان عبد العزيز بن مروان يشيد بشجاعة موسى وإخلاصه أمام الخليفة مما جعله يخص موسى بالحفاوة والتكريم.

وفي يوم من الأيام حمل البريد رسالة من الخليفة إلى أخيه عبد العزيز والي مصر يخبره فيها بأنه قد عين أخاه بشر بن مروان والياً على البصرة، وجعل موسى بن نصير وزيراً يساعده على إدارة الولاية ورئيساً لديوان العراق، ومكن الله لموسى، وثبت أركان وزارته، فلم يمض وقت طويل، حتى عين الخليفة أخاه بشرًا على الكوفة، وبذلك ترك لموسى بن نصير ولاية البصرة ليدبر شئونها وحده بوعي وبصيرة، ثم عينه صديقه عبد العزيز بن مروان والياً على شمال إفريقيا بدلاً من حسان بن النعمان الذي غضب عليه عبد العزيز.

لما عزل حسان بن النعمان، تولى موسى بن نصير علي إفريقيا بامر عبد العزيز بن مروان، وكان موسى هذا من أقدر رجال الدولة الأموية وأكثرهم كفاءة وإخلاصاً لها، وكان موسى بن نصير قائماً في حرس معاوية بن أبي سفيان، وقيل إنه كان وصيفاً لعبد الملك بن مروان فأعتقه، وأصبح موسى مولي عبد العزيز بن مروان، وعينه الخليفة عبد الملك بن مروان عاملاً علي العراق مع بشر بن مروان ولكن الخليفة أخذ عليه بعض المآخذ، وأراد قتله فافتداه منه عبد العزيز بن مروان عامل مصر بمال، وأجاره ثم ولاه إفريقيا^(١)، ... لا يتفق المؤرخون على تاريخ محدد لتولية موسى بن نصير على

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٤٥.

المغرب وعزل حسان بن النعمان عنه، ولكن الأقرب إلى تسلسل الأحداث أن يكون عزل حسان وتولييه موسى بن نصير في سنة ٨٥هـ، قبيل وفاة عبد العزيز ابن مروان والذي ينسب إليه المؤرخون عزل حسان وتولية موسى، وبعد أن عزل عبد العزيز بن مروان والي مصر حسان بن النعمان والي إفريقية وليّ مكانه موسى بن نصير، وكان في أواخر سنة خمس وثمانين الهجرية أو في أوائل سنة ست وثمانين الهجرية وعندما توافدت الجيوش، قام موسى بن نصير خطيباً، فكان مما قاله: وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة، فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة، فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، أصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير أكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، من كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان مع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقية حشد جيشه وأكمل استحضاراته الإدارية وساوى نفسه برجاله، وسار موسى متوجهاً إلى الغرب وكان الأمن غير مستتب، فلما وصل إفريقية برز موسى بن نصير قائداً منتصراً في فتح المغرب، ويرجع ذلك إلى السياسة التي اتبعتها مع الأهالي وهي سياسة التعاون والاندماج الكلي مع البربر، فحين كان يقدم على موسى وفود القبائل ليعلموا ولاءهم كان يولي عليهم رجلاً منهم ويأخذ رهائن من خيارهم لضمان هذا الولاء، كما فعل مع وفد كتامة ومع وفد مصمودة وغيرهم، ولكن ما أن يعتنق البربر الإسلام، كان موسى يقر زعمائهم في الرئاسة مقابل مساهمة كل قبيلة بعدد كان من المقاتلين للانضمام للمقاتلة العرب. وأعطت سياسة التفاهم هذه ثمارها، فقد استطاع موسى أن يجند

أعداداً كبيرة من قبائل البربر مثل كتامة وهوارة وزناتة ومصمودة، وألحق موسى بن نصير هؤلاء المقاتلة من البربر مع جراوة الذين كانوا قد جندوا في عهد حسان، ووضعهم جميعاً في حامية طنجة تحت قيادة طارق بن زياد الذي وليها سنة ٩٠ هـ من قبل موسى بن نصير، ومن الوسائل التي استخدمها موسى في تأليف القلوب وضبط الأمور، وتقوية الدولة الإسلامية:

١- عتق بعض السبايا: كان موسى بن نصير يعتقد بعض سباياهم ويتولاهم في نطاق خطته لتشجيع البربر على الدخول في الإسلام، فكان يشتري من السبايا من كان في ظنه أن يقبل الإسلام.

٢- تطبيق مبدأ المساواة: في النفل بين البربر المسلمين والعرب الذين أبلوا بلاء حسناً وذلك تشجيعاً وتقديراً لبلانهم وبهذا التصرف تمكن موسى من جلب أعداد كبيرة إلى الإسلام وإشراكهم في الجيش الإسلامي.

٣- التنظيم الإداري: ويبدو أن موسى بن نصير حين دخل إفريقية وجدها في حاجة ماسة إلى إدارة مستقرة، فقد انفردت كل قبيلة بربرية بناحياتها واستبدت بها دون أن تخضع لولاة أو عمال، فأخذ موسى يعمل على إخضاع كل المغرب إلى الحكم الإسلامي فبدأ ينقل البيزنطيين من المدن الساحلية والنواحي الداخلية وأسكنهم قرب مراكز الحكم الإسلامي مما يتيح للمسلمين مراقبتهم ودعوتهم وتعليمهم.

٤- تكوين القوة البحرية: أنشأ حسان بن النعمان دار صناعة السفن بتونس ثم استكملها بعده موسى بن نصير وعبيد الله بن الحباب، ويذكر أنه صنع بها مراكب مما مكنه من غزو صقلية.

٥- سك النقود: ويبدو أنه بادر بسك النقود بإفريقية، إذ يرى

حسن حسني عبد الوهاب أن أول أمير سك النقود بإفريقية، هو موسى ابن نصير سنة ٩٥ هـ.

... وتتلخص أعمال موسى بن نصير في حرصه على نشر الإسلام بين البربر ولهذا كان يختار عمالاً يحسنون السيرة في أهالي المناطق المفتوحة^(١)، واختار فئة من أصحابه لتعليم البربر حديثي الإسلام، القرآن ومبادئ الإسلام. فقد أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين، وذكر ابن عذارى أن موسى ترك سبعين رجلاً من العرب في طنجة يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام. وهذه السياسة هي استمرار لسياسة عقبة بن نافع وحسان بن النعمان. وهذا أدى إلى انتشار الإسلام في المغرب الأقصى. واستطاع موسى بن نصير بعد حملات جهادية منظمة السيطرة على جميع شمال إفريقية من برقة إلى المحيط الأطلسي وأصبح سيد إفريقية بدون منازع، وكان أولاده من ضمن قادته في فتوحاته الكبرى.

وكانت له حملات بحرية على جزر البحر الأبيض المتوسط ومن أشهر تلك الحملات ما سمي بحملة الأشراف بسبب اشتراك أشراف الناس فيها وكانت وجهتها جزيرة صقلية حيث بلغ عدد مقاتليها بين التسعمائة والألف وكانت بقيادة ابنه عبد الله الذي حقق نصراً حاسماً حتى غنم المسلمون غنائم كثيرة بلغ فيها سهم المقاتل مائة دينار ذهب. هذا ولم تقتصر حملات موسى بن نصير البحرية على مقاتلة إفريقية بل شملت دعم الحملات البحرية في ولاية مصر، هذا وقد توجت هذه الانتصارات البحرية الرائعة التي حققها الأسطول الإسلامي

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٤٦، الصلابي، الدولة الأموية، (١٣٩ / ٣).

بفتح بلاد الأندلس الذي خطط له موسى بن نصير ونفذه طارق بن زياد وتم بشكل نهائي بتوفيق الله ثم جهود هذين القائدين العظيمين^(١).

وكتب موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه في فتح تلك البلاد، ويشرح له اضطراب أحوالها وأنّ الفرصة غدت مواتية بعد مؤامرة يوليان ضدّ لوذريق، غير أن الخليفة أمر موسى بأن يختبر الأندلس ويدرس أحوالها بنفسه بإرسال حملات استطلاعية إليها، وعهد موسى بن نصير إلى يوليان نفسه القيام بإغارة على جنوب أسبانيا ليتحقّق بذلك من أمرين: أولهما أن يوليان جادّ في دعواه ضدّ لوذريق، وكراهيته له ولحكومته في أسبانيا، وثانيهما: أن يعرف من المقاومة التي يتعرض لها يوليان مدى قوّة القوط وما لديهم من استعداد حربي، وقام يوليان فعلاً بإغارة سريعة على جنوب أسبانيا، ورجع منها محمّلاً بالكثير من الغنائم والسبي.

وأراد موسى بن نصير أن يقف بعد ذلك بنفسه على أحوال أسبانيا؛ فأعدّ حملة من المسلمين جعل على رأسها أحد قادته المشهورين بالمغامرة والشجاعة، وهو أبو زرعة طريف ابن مالك؛ فبعث هذا القائد إلى الأندلس في أربعمئة من خيرة الفدائيين، وذلك على سفن قدّمها لهم يوليان، ونزل المسلمون في جزيرة صغيرة اسمها بالوماس، وهي التي صارت تحمل بعد ذلك اسم القائد المسلم وعرفت بجزيرة طريف، وبادرت قوّة مكونة من أبناء غيطشة التي اشتركت في الحملة إلى مساعدة المسلمين وحراسة المضيق، وذلك في شهر رمضان عام ٩٢ هـ يوليو ٧١١ م، وشنّ طريف من مركزه بتلك الجزيرة عدّة حملات استطلاعية على سواحل أسبانيا الجنوبية،

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٤٦ - ٤٧، الصلابي، الدولة الأموية، (٣ / ١٣٩).

حيث درس تحصيناتها وعرف الكثير من أحوال أهلها ومدى علاقتهم بحكامها من القوط، وأخيرا عاد طريف إلى بلاد المغرب (١) فقدم تقريراً مفصلاً عن إغاراته إلى موسى بن نصير، وشرح له في إسهاب أحوال أسبانيا، وقد أكدت غارة طريف لموسى بن نصير صدق الأقوال التي نقلها إليه يولييان عن انهيار الأحوال في أسبانيا وافتقارها إلى أسباب الدفاع؛ بسبب انشغال القواد بملاذهم وانصرافهم إلى أعمال الطغيان وسلب ثروات البلاد لأنفسهم؛ فلم يلق طريف نوعاً من أنواع المقاومة، كما لم يقابل قوة من قوات القوط أثناء استطلاع له لأحوال جنوب أسبانيا، هذا إلى أن مبادرة أفراد بيت غيطشة إلى مساعدته وحرصتهم لخطوط مواصلات المسلمين جاء دليلاً واضحاً على الانقسام الذي ساد الطبقة الحاكمة من القوط، وأن لوزريق لا يحكم إلا بالعنف والقسوة، وهو أمر لن يكفل له مقاومة المسلمين طويلاً عندما يبدأ الفتح الإسلامي للبلاد

هذا إلى أن يولييان برهن مرة أخرى بما قدمه من مساعدات لحملة طريف على أنه كاره فعلاً للوزريق، وأن المؤامرة التي دبها مع أبناء غيطشة ضد هذا الحاكم المستبد مؤامرة لها خطرها، وأن خيوطها صحيحة وسليمة.

وبعودة حملة طريف انتهى موسى بن نصير من دور الحملات الاستطلاعية، وبدأ الإعداد الفعلي للفتح المنظم لأسبانيا، وأثبت موسى بن نصير مقدرة حربية فائقة في هذا السبيل؛ إذ دارت الاستعدادات الحربية التي قام بها دون أن يتسرب أمرها إلى القوط، ودون أن يتنبه يولييان نفسه إلى حقيقة أهدافها وجوهر مراميها؛ فقد استطاع موسى بن نصير أن يوهم يولييان بأن استعداداته الواسعة

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢١٦.

النطاق التي أعقبت حملة طريف ما هي إلا حملة قوية لمساعدة أبناء غيطشة ضدّ لوزريق، وأخفى عنه تماماً أنها ستكون الحلقة الأولى في سلسلة الفتح المنظم لأسبانيا، وأعدّ موسى بن نصير حملة مكوّنة من خمسة آلاف جندي حتى لا يثير كثرة عددها ريبة يوليان أو مخاوفه، وفي الوقت نفسه سار موسى بن نصير في ذلك الإعداد على النهج الذي سارت عليه الفتوح الإسلامية الكبرى في شتّى الجهات، وهو القيام أولاً بإرسال حملة صغيرة العدد يتبعها إمدادات لا تنتهي - سواء من حيث الكثرة أو حسن الاستعداد - حتى يتم تحقيق الأهداف الحربية، وانتدب موسى لقيادة هذه الحملة الأولى على الأندلس أحسن قادة المسلمين إذ ذاك وأشدّهم ثقة به وهو: طارق بن زياد.

جاء اختيار موسى بن نصير لطارق بن زياد لقيادة هذه الحملة خطوة موفّقة، وأكّد بعد نظر موسى وسعة خبرته الحربية؛ فطارق من البربر الذين عرفوا أرض الأندلس معرفة وثيقة؛ لأنهم يرونها امتداداً لبلادهم لا فارق بين بيئتها وبيئتهم، يضاف إلى ذلك أن طارقاً هو الذي تولّى بنفسه جمع المعلومات عن بلاد الأندلس، وتولّى مفاوضات يوليان، وصار خبيراً بالميدان الجديد في سائر نواحيه الحربية والسياسية، وعمل موسى بن نصير على أن يشدّ أزر طارق الذي عهد إليه بالقيادة العليا للحملة؛ إذ ضم إليه هيئة من كبار رجال الحرب من العرب والبربر ليكونوا بمثابة مجلسه الاستشاري ومساعديه في إدارة المعارك، ومن أولئك القادة العرب: عبد الملك بن أبي عامر المغافري، وعلقمة اللخمي، وأحد موالى الخليفة الوليد بن عبد الملك واسمه مغيث الرومي، وكان القائد الأخير يعتبر مندوب الخلافة الحربي في تلك الحملة التي أعدّها موسى بن نصير،

وحلقة الاتصال بين السلطات المركزية في دمشق ومقر القيادة الإسلامية في القيروان، وكلف موسى ابن نصير بعد ذلك يولييان بأن يقدم للقوات الإسلامية السفن اللازمة لنقلها إلى أسبانيا، كما يتولى حراستها ويقوم بمهمة الدليل لها، وكان السبب في إصرار موسى بن نصير على الاعتماد في نقل الجند بسفن يولييان هو حرصه الشديد على إخفاء تحركات هذه الحملة عن العيون والجواسيس؛ فالأسطول الإسلامي كان قد تمّ إعداده على عهد موسى ابن نصير وصارت له قاعدة هامة في تونس، كما ظهر نشاطه في السيطرة على الجزر الهامة في غرب البحر المتوسط ولذا كانت تحركات هذا الأسطول محط أنظار الجميع ولا يمكن إخفاء أمرها، ولما كان موسى بن نصير يستهدف مفاجأة القوط بالأندلس لم يكن أمامه سوى الاعتماد على سفن يولييان التي لا تثير الريبة في نفوس من يشاهدها وهي تعبر بحر الزقاق (مضيق جبل طارق)، وكان لدى يولييان أربع سفن لا تتسع لنقل أفراد الحملة مرة واحدة، ولذا تمت عملية عبور بحر الزقاق على دفعات، وأخذت كل جماعة يتمّ نقلها تختفي في جهات خصّصت لها على الشاطئ الأسباني، حتى انتهى الجميع من العبور وذلك عام ٩٢ هـ (٧١١ م)^(١).

وبادر طارق بن زياد بتحسين القاعدة الأولى التي استولى عليها في جنوب أسبانيا قبل التوغّل في داخل البلاد، ثم استولى على بلدة الجزيرة الخضراء قبالة جبل طارق، وصار بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) في قبضة المسلمين وعلى اتصال وثيق بسببته قاعدة الاتصال الأولى ببلاد المغرب.

(١) ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص ٨٨ - ٩٠، المقرئ، نفع الطيب، ٢٣٧ / ١ - ٢٣٨.

وتمت المرحلة الأولى بذلك من نزول الحملة الإسلامية في أسبانيا دون مقاومة تذكر، وكان السبب في ذلك هو أن موسى بن نصير اختار وقت قيام حملة طارق وفق أدق المعلومات التي وصلتته، وكانت المخابرات الإسلامية تتبع حركات لوزريق وتتحين الوقت المناسب لبدء الحملة، وسرعان ما سنحت الفرصة حين ذهب لوزريق إلى أقصى شمال أسبانيا ليخمد ثورة قام بها سكان جبال البرانس المعروفة باسم القبائل البسقاوية، وكانت تلك الجموع القبلية مشهورة بالمراس وقوة الشكيمة، مما جعل لوزريق يأخذ معظم جيشه معه، وأصبح جنوب أسبانيا خاليا تماما من أسباب الدفاع عنها، ولذلك لم تشعر سلطات القوط بنزول المسلمين في جنوب البلاد إلا بعد أن استقرت دعائمهم ومكنوا لأنفسهم على بحر الزقاق، فعبأت قوات سريعة وأرسلتها على عجل للهجوم على المسلمين تحت قيادة (بنج) المعروف باسم (بنشو) في المراجع الأسبانية، ولكن القوط لقوا هزيمة فادحة لم ينج منهم إلا واحد استطاع الهرب والذهاب إلى معسكر لوزريق في أقصى الشمال، ونقل إليه أنباء تلك الكارثة وهجوم المسلمين على البلاد، وكان لوزريق يقيم في مدينة بنبلونة بأقصى الشمال حيث يدير الحرب ضد القبائل البسقاوية، ولذا صمم العودة سريعا إلى الجنوب والهجوم على المسلمين قبل أن يتوغلوا في داخل البلاد، وكان لوزريق من أشهر رجال القوط في ميدان الحروب؛ إذ قدر تماما الخطر الذي أحاط بدولته بسبب نجاح المسلمين في اتخاذ قاعدة لهم عند جبل طارق، وأدرك أنهم جاؤوا للفتح وليس للإغارة من أجل السلب والنهب والحصول على المغنم كما راجت الإشاعات بذلك، ومن ثم عمد إلى جمع صفوف القوط لمواجهة المسلمين؛ فاتصل بأبناء غيطشة وصالحهم ليكونوا جميعا

يدا واحدة، ولكن أعمال لوذريق في تلك السبيل جاءت متأخرة؛ لأن بيت غيطشة ظلّ على ولانه سرّاً للخطة التي وضعها يوليان، ولم ينس ما حلّ به من أذى واضطهاد وتشريد على يد لوذريق، وفي الوقت نفسه ظلّ أبناء هذا البيت في اعتقادهم أن المسلمين لم يأتوا للفتح ولكن للحصول على المغانم مقابل مساعدتهم في القضاء على لوذريق، وزحف لوذريق بجيشه سريعا واحتلّ قرطبة؛ ليحول بين المسلمين وبين الاستيلاء عليها؛ لأنها المفتاح الذي يسيطر على سهول الأندلس الجنوبية الشرقية، ويمكن لصاحبها من الاستقرار في البلاد (١).

وكان طارق بن زياد يريد فعلا الاستيلاء على قرطبة؛ فقد زحف على هذه المدينة بعد انتصاره في جنوب أسبانيا، وسلك الطريق المارّ بجزيرة طريف (الجزيرة الخضراء) ثم زحف شمالا بعد ذلك حتى اقترب من بحيرة الخندق التي يخترقها نهر صغير يسمى البرباط، وفي ذلك المكان مدينة صغيرة سمّاها المسلمون (بكة) ونسبوا إليها النهر الذي صار يعرف باسم وادي بكة، وحرف بعض المسلمين هذه التسمية إلى وادي لكّة، وعند وادي بكة عرف طارق بن زياد عن طريق عيونه أن لوذريق علم بنبأ الحملة الإسلامية وأنه وصل إلى قرطبة واستولى عليها، كما أنه تابع زحفه جنوبا واتخذ معسكره عند بلدة شدونة في سهل البرباط، وأنه صار بذلك على أهبة القتال، وذكرت بعض المراجع أن جيش القوط بقيادة لوذريق بلغ عدده مائة ألف مقاتل وضمّ عددا عظيما من الفرسان، ويرجح أن هذا العدد مبالغ فيه، وأدرك طارق بن زياد أن العدد الذي معه من جند المسلمين لا يكفي لقتال قوات لوذريق الهائلة؛ ولذا أرسل إلى

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٨، المقرئ، فتح الطيب، ١ / ٢٣٩.

موسى بن نصير يشرح له الموقف ويطلب إليه إرسال الإمدادات بسرعة، فأمدّه موسى بن نصير بحملة عددها خمسة آلاف مقاتل بقيادة طريف بن مالك الذي قاد أول حركة استطلاعية في أرض أسبانيا، ونقل هؤلاء الجنود مرّة واحدة على سفن الأسطول العربي إلى أسبانيا، ووصلت الإمدادات الإسلامية إلى طارق في اللحظة الحاسمة التي كان القوط على وشك شنّ الهجوم على المسلمين، وأعدّ طارق بن زياد قواته للمعركة، ثم وقف بين جنده خطيباً يحثّهم على الاستبسال في القتال، شأنه في ذلك شأن قادة الفتوح العربية الذين دأبوا على رفع روح جندهم المعنوية بإلقاء خطاب حماسي بينهم قبل نشوب المعركة، وتعتبر خطبة طارق من روائع الأدب العربي، ومما جاء في هذه الخطبة: "أيها الناس! أين المفرّ؟ البحر من ورائكم والعدوّ أمامكم، وليس لكم والله إلا الصبر والصدق، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللنام، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهب ربحكم وتعوّضت القلوب عن رعبها فيكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية؛ فقد ألقّت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإنني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعاً فيها للنفوس أبداً بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلاً استمتعتم بالأرفة الألدّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي؛ فما حظكم فيه بأوفى من حظّي، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدرّ

والمرجان والحلل المنسوجة بالعقبان، المصورات في قصور الملوك نوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا؛ ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان؛ ليكون حظّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي أنجادكم على ما يكون لكم ذكرا في الدارين.

أيها الناس: ما فعلت من شيء فافعلوا مثله؛ إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهينة رجل واحد في القتال، وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه؛ فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تتازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير، وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية، ولا تعطوا بأيديكم وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة الراحة من المهانة والزلة، وما قد أجل لكم من ثواب الشهادة فإنكم إن تفعلوا - والله معكم ومفيدكم - تبوعوا بالخسران المبين وسوء الحديث غدا بين من عرفكم من المسلمين، وهأنذا حامل حتى أغشاه؛ فاحملوا بحملي^(١).

وفي الوقت الذي أثرت فيه خطبة طارق تأثيرا كبيرا في نفوس جنوده ورفعت من روحهم المعنوية كانت العناصر الحانقة على لوزريق تحدث أعمالها وتدفع بكثير من أولئك الغاضبين إلى الانضمام إلى جيش طارق، ووقف الفريقان على ضفتي النهر أخيرا استعدادا للقتال، وكان المسلمون ببساطتهم ويقظتهم موضع الهيبة في النفوس، على حين كان منظر القوط يدعو إلى السخرية والازدراء؛ إذ جلس لوزريق في عربة مطهمة يجرها جوادان وعليه أثواب

(١) المقرئ، نفع الطيب، ١ / ٢٢٥.

الحرير البراقة، وهو يحاول عبثاً بثّ روح الحماسة في جنده، وكان في جيشه اثنان من إخوة غيطشة، وهما: أبه وششبرت اللذان صالحهما بغية توحيد صفوف القوط، وجعل أحدهما على الخيالة التي كانت عماد جيش القوط، وفي يوم الأحد ٢٨ من رمضان عام ٩٢هـ (١٩ يوليو ٧١١م) بدأت المناوشات بين الجانبين على وادي البرباط بالقرب من بلدة شذونة، واستمرت المناوشات ثلاثة أيام أظهر فيها كل من الجانبين الكثير من ضروب الشجاعة والبسالة دون أن يحصل أحدهما على نصر يذكر، غير أن أتباع يوليان نشطوا في أثناء القتال وبثّوا رجالاتهم وسط جند لوزريق ليصرفوهم عنه ويؤكدوا لهم أن المسلمين لم يأتوا إلى الأندلس للفتح والاستقرار ولكن للقضاء على هذا الطاغية، وأنه إذا تمّ القضاء على حكم لوزريق عادت البلاد ملكا لهم ينعمون بخيراتها، ونجحت دعايات يوليان بين فرسان القوط، خاصة تلك التي كان يتولى قيادتها أحد إخوة غيطشة ملك القوط السابق الذي قضى عليه لوزريق.

وفي اليوم الرابع من المعركة ظهرت نتائج دعايات يوليان بين صفوف جيش لوزريق؛ فقد تخلى عنه جماعات الخيالة التي كانت العمود الفقري للعمليات الحربية، وأدى ذلك إلى وقوع الاضطراب بين سائر جند القوط وهرب الكثيرون منهم طلبا للنجاة، هذا إلى أن غالبية الجيش اشتملت على أعداد كبيرة من العبيد الساخطين على حكم القوط المتمنين زواله، ووجدوا في تلك المعركة فرصتهم للخلاص مما حلّ بهم من ظلم واضطهاد، ولما أخذت مظاهر الفوضى تسود الجيش بسبب انسحاب الخيالة تراخى العبيد عن القتال وانتهت المعركة بانتصار المسلمين.

وفرّ لوزريق تاركا عددا كبيرا من القتلى على أرض الميدان،

وحسب البعض أن لوزريق غرق في النهر الذي دارت المعركة بقربه؛ لأن الجند وجدوا على الشاطئ بعد انتهاء القتال خفة دون أن يعثروا له على أثر، غير أن لوزريق أبى الاستسلام بعد الهزيمة الساحقة التي نزلت به، وفرّ إلى داخل البلاد دون أن يكشف أحد أمره، مستهدفا جمع فلول القوط مرة أخرى والانتقام ممن انضمّ من رجاله إلى المسلمين، وبعث طارق بأنباء انتصاراته إلى موسى بن نصير الذي أبلغها بدوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، وبدأت راية الإسلام تعلو خفاقة فوق غرب أوروبا للمرة الأولى في التاريخ^(١).

وأحدث انتصار طارق بن زياد في وادي لكّة دويا هائلا في المشرق والمغرب، وازدادت قوات طارق بن زياد بعد معركة وادي بكة؛ لأن الإمدادات انهالت عليه من المغرب، وكان لابد لطارق أن يجني ثمار جهاده وانتصاره في وادي لكّة، قبل أن تجتمع فلول القوط مرة أخرى، فرأى طارق أن يتابع زحفه دون إبطاء ليستولي على قرطبة ويقضي على ما بها من بقايا جيش القوط، غير أنه لقي في الطريق إلى هذه المدينة مقاومة عنيفة جعلته يعدل عن خطته ويبادر بالاستيلاء على طليطلة عاصمة دولة القوط ويتوج بذلك انتصاراته في أسبانيا، وكان السبب في هذا التطور الجديد هو ما بلغ طارقا من أن أنصار لوزريق حين ترامت إليهم الشائعات بأن ملكهم لم يقتل بدعوا يجمعون صفوفهم مرة أخرى في طليطلة لمقاومة المسلمين.

ومن ناحية أخرى أخذ أنصار الملك السابق غيطشة يجتمعون في طليطلة ويتشاورون فيما بينهم لإعلان أحدهم ملكا مكان لوزريق المهزوم، ولذا عجل طارق بإرسال جزء من جيشه للاستيلاء على قرطبة ليحمي ممتلكاته بجنوب أسبانيا، على حين انطلق بنفسه

(١) ابن عبد الحكم، فتوح المغرب والأندلس، ص ٩٦، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٠ / ٢.

سريعا إلى طليطلة قبل أن يتمكن أتباع لوزريق من تحصينها، وقبل أن يصل أبناء غيطشة أيضا إلى قرار يصعب على المسلمين مواجهته، ذلك أن بيت غيطشة ظلّ واهما حتى تلك الأحداث بأن المسلمين ما جاءوا إلا للمغانم مقابل مساعدة أبناء غيطشة للوصول إلى العرش، واستولى طارق بن زياد على مدينة طليطلة في سهولة ويسر؛ لأن القوط آثروا تجنّب لقاء المسلمين انتظارا لما تسفر عنه استعداداتهم، وحاول طارق أن يتتبع فلول القوط الهاربة من طليطلة حتى بلغ مدينة أطلق عليها (المائدة) على مقربة من هنارس، وهناك عثر المسلمون على كنز ثمين، عبارة عن مذبح كنيسة طليطلة المحلى بأعلى ما كان لدى القوط من الذهب والجواهر، غير أن طارقا اضطرّ إلى العودة إلى طليطلة لأن الصيف كان قد انقضى؛ فآثر البقاء في العاصمة دون أن يعرض جنده لبرد الشتاء القارس، وفي طليطلة بلغه أن جيشه الذي بعث به إلى قرطبة قد استولى عليها^(١).

وقد شعر موسى بن نصير أن زحف طارق وراء فلول القوط يوشك أن يعرض الفتوح الإسلامية في البلاد الأسبانية المترامية الأطراف لخطر محقق، ذلك أن خطوط مواصلات المسلمين فيما بين طليطلة والجزيرة الخضراء وبلاد المغرب صارت غير آمنة؛ لأن المعقل الكبرى المبعثرة على امتداد تلك الخطوط لم تخضع للمسلمين، ولم يسيطر طارق إلا على قرطبة فقط من بين تلك المعقل المتعددة، هذا إلى أن قرطبة لم يكن بها سوى حامية صغيرة لا تستطيع أن تؤدي رسالتها كما ينبغي إذا انبعثت أية حركة مقاومة

(١) المقري، نفع الطيب، ١ / ٢٤٤ - ٢٤٨، ٢٧٠، ابن عذاري، البيان المغرب، ١٧ / ٢، ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص ٩٤، حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٧٨.

بين صفوف القوط، وأول من شعر بالخطر الذي بات يهدّد المسلمين في أسبانيا هو القائد يوليان الذي قام إذ ذاك في الجزيرة الخضراء ليؤمن خطوط مواصلات المسلمين بين أسبانيا والمغرب، وذلك في الوقت الذي اندفع فيه طارق بن زياد إلى طليطلة عاصمة القوط، فقد بعث يوليان مجموعة من رجاله مع المسلمين عند توغّلهم في البلاد، واستطاعت بفضل خبرتها وأهلها أن تدرك ما يدور في نفوس القوط من غدر، وأنهم يتجمّعون وفق خطة مرسومة لإنزال الهزيمة بالمسلمين، أفضى يوليان إلى طارق بما جاءه من أخبار وطلب منه القيام بعمل حاسم لتأمين ظهر جيوشه، غير أن طارقاً أثر البقاء في طليطلة دون القيام بأية أعمال توسيعية، ثم كلف يوليان بأن يتصل بموسى بن نصير في القيروان ويطلب إليه سرعة المجيء إلى أسبانيا لإنقاذ الموقف.

ولما جاءت استغاثة طارق إلى موسى بن نصير أدرك أن مخاوفه من انطلاق طارق في فتوحه بعد معركة وادي بكة لها ما يسوغها، وأسرع موسى بإعداد جيش مكوّن من ثمانية عشر ألفاً من خيرة جنده، وكان معظمهم من العرب والبربر الذين عرفوا بقوة الشكيمة وشدة المراس، وممن اشتهروا ببلائهم في ميدان الحروب ببلاد المغرب، وغادر موسى بلاد المغرب على عجل، وقسم موسى بن نصير جيشه بحسب القبائل ليسهل عبورها إلى الأندلس دون أن تقع فوضى في صفوف الجند، وفي رمضان عام ٩٣ هـ (يونيه ٧١٢م) كان موسى ابن نصير قد غادر المغرب ووصل إلى الجزيرة الخضراء في الأندلس، وشيّد بها مسجداً وانتظر هناك حتى تمّ عبور سائر الجند واطمأنّ على سلامتهم وحسن ترتيبهم^(١).

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ١٩، ابن قتيبة الإمامة والسياسة، ص ١٢٤.

وفي تلك الأثناء أسرع يولييان إلى لقاء موسى بن نصير وعقد معه مجلسا حربيا للتشاور في هذا الموقف الخطير، وقرر هذا المجلس الحربي أن الضرورة تقضي بالسيطرة أولا على المعقل التي تركها طارق والتي باتت خطرا يتهدد المسلمين، وبعث موسى بن نصير عقب هذا المجلس الحربي الهام رسالة إلى طارق بن زياد يأمره فيها بالانتظار في طليطلة، وألا يقوم بعمل حربي إلا بإشعار آخر. ورددت بعض المراجع أن موسى لم يقدم على هذا العمل والعبور إلى الأندلس إلا منافسةً لطارق ورغبة استتبتت به لينال بدوره نصيبا كبيرا من الغنائم، وأن الحسد كان يأكل قلبه، وأنه صمّم على محاسبة طارق على أعماله، وأنه رأى أن يتولى بنفسه فتوحا أخرى أعظم مما قام به هذا القائد.

وقد وقعت تلك المراجع في هذا الخطأ الفاحش لأنها صوّرت موسى وطارقا تصوير القائدين المختلفين، وأنّ كلا منهما كان يعمل دون علم الآخر، والمعروف أن طارقا لم يقم بما قام به من أعمال حربية إلا باسم موسى بن نصير الذي تولى القيادة العليا ورسم الخطط، وأمدّ طارقا بكل المساعدات الحربية ولا سيما في ساعة الخطر بعد معركة وادي بكة، هذا إلى أن طارق بن زياد كان يرسل إلى موسى بن نصير عن طريق يولييان أنباء تقدّم المسلمين خطوة خطوة، مما جعل القيادة العليا في القيروان تتابع الأحداث عن كثب، ومن ثمّ لم يكن هناك سبب يدعو موسى لأن يحقد أو يحسد طارقا على ما تم على يديه من فتح؛ لأنه شارك في هذا الفتح وأعدّ خططه، هذا إلى أن موسى لم يكن يتطلع بعبوره إلى الأندلس إلى الحصول على مغانم؛ لأن توزيع الغنائم وغيرها من ممتلكات القوط كان هو المرجع الأخير فيه.

والحقيقة أن موسى بن نصير باعتباره القائد الأعلى قد أفرغه زحف طارق السريع بعد معركة وادي بكة، وتعريضه خطوط مواصلات المسلمين لخطر محقق؛ بسبب تركه الكثير من المعازل والمدن الهامة جريا وراء مطاردة القوط، ولذلك بادر موسى برسم خطة للسيطرة أولا على المراكز الحربية وغيرها في المدن التي كانت تهدد خطوط مواصلات المسلمين، وليدعم فتوح المسلمين قبل الذهاب إلى طارق في طليطلة.

وتنهض هذه الخطة التي وضعها موسى دليلا على أنه لم يكن يهدف إلى القيام بفتوح جديدة تغطي أخبارها وعظمتها ما قام به طارق، وأن مجيئه إلى الأندلس كان ضرورة حربية ملحة وإصلاح خطأ وقع فيه قائده طارق ولو كان موسى بن نصير يقص من وراء جوازه إلى الأندلس تأديب طارق لكان قد جاز إليه في رفقة عدد قليل من المسلمين، ولأسرع للقائه، ولكن موسى جاز الزقاق في جيش أضخم بكثير من جيش طارق، ومضي يفتتح مدن الغرب، ويقضي على مراكز المقاومة طوال هذا العام، قبل أن يلتقي بطارق بن زياد، كل ذلك إن دل على شيء فعلي أن موسى كان ينوي إتمام فتح الأندلس وفقا لخطة رسمها هو وطارق ويوليان، ولو كان موسى يضممر في نفسه شرا لطارق، مدفوعا في ذلك بعوامل الغيرة والحسد، لما عبر الزقاق بعد عام كامل من زول طارق إلى الأندلس، ولما سلك طريقا غير الطريق الذي سلكه من قبل، وكان أسرع إلى لقائه كف يده، بدلا من إضاعة وقته في إفتتاح مدن الغرب القوية، مثل إشبيلية وماردة، ولبلبة، وباجة (١).

والحقيقة أنه إن كان حدث شيء فلا يعدو أن يكون مناقشة

(١) السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ٩٢.

القضايا أو استفهامه من طارق خطته وإبداء الملاحظات عنها، تخوفاً من الأذى، وعندما استفسر موسى من طارق عن سبب الايغال والتقمح في بلاد العدو، اعتذر إليه طارق بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة والضرورة الداعية لأسلوبه، وقبل موسى عذره. وسارا بعده - سوية إخوة مجاهدين، ينشرون دين الله ويُعلون كلمته ويبلغون للناس شريعته، كما لا ننسى أن طارق جندي من جنود موسى والانتصارات التي حققها طارق إنجازات تكتب في صفحة موسى القيادية.

واستطاعت الإدارة الإسلامية التي شيدها موسى بن نصير أن تضع الحجر الأساسي لبناء الحضارة الإسلامية في أسبانيا، وجعلت من تلك البلاد أعظم مركز للإشعاع الحضاري في أوروبا في العصور الوسطى، ومن ثم أخذت أسبانيا تخطو سريعا في مضمار الازدهار العلمي وتدخل سجل التاريخ باعتبارها الشريان الذي نقل إلى أوروبا ثمار الحضارة الإسلامية ومعارفهم، وهياً لسكان غرب أوروبا السبيل للخروج من جهالة العصور الوسطى إلى نور الإسلام وضوء الحضارة الإسلامية الساطع.

وقد استغرق الفتح الإسلامي لأسبانيا ثلاث سنوات وبضعة شهور؛ إذ بدأ الفتح الإسلامي لأسبانيا في رجب عام ٩٢ هـ وتم في ذي القعدة عام ٩٥ هـ.

ويلاحظ أن العرب أطلقوا اسم الأندلس على المناطق التي كانوا يسيطرون عليها من شبه جزيرة أيبيريا، ولا زال اسم الأندلس يطلق على الجزء الجنوبي منها.

وبعد أن تمكن موسى بن نصير وطارق بن زياد من توطيد أركان الدولة الإسلامية في الأندلس جاءه مندوب الخلافة وهو مغيث

الرومي، ومعه أمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك لكل من موسى بن نصير وطارق بن زياد بالمجيء إلى البلاط ومقابلته شخصيا في دمشق فاختر موسى بن نصير مدينة أشبيلية حاضرة للبلاد وعين ولده عبد العزيز واليا على الأندلس، واستخلف على المغرب الأقصى ابنه عبد الملك، كما استخلف على إفريقية ابنه عبد الله، ثم غادر موسى بن نصير الأندلس وبصحبته طارق بن زياد وكبار الجند في ذي القعدة عام ٩٥ هـ (٧١٤م)، ويقال إن يوليان كان معهم.

وكان موكب موسى بن نصير إلى دمشق من الموضوعات التي أفاض في وصفها الرواة والإخباريون العرب، ونقلها المؤرخون مثل ابن عبد الحكم وابن قتيبة وابن القوطية والمراكشي وابن عذاري وابن خلكان والمقري وابن الأثير، ويقال إن موكب موسى ابن نصير اشتمل فيما عدا حاشيته الخاصة على أربعمائة من أفراد الأسرة القوطية المالكة وأسر النبلاء؛ تزيين رؤوسهم التيجان وتطوق أوساطهم الأحزمة الذهبية، ومعهم جموع من العبيد والأسرى يحملون نفائس الغنائم^(١).

وعندما اقترب موسى من دمشق وصلته رسالتان كان لهما أكبر الأثر في اختتام حياته فيما بعد، أما الرسالة الأولى فكانت من ولي العهد سليمان بن عبد الملك يطلب فيها من موسى بن نصير أن يبسط في الحضور إلى دمشق لأن الخليفة الوليد بن عبد الملك مريض مرض الموت وفي أيامه الأخيرة، وبذلك يحظى سليمان عندما يعتلي العرش باستقبال أعظم موكب للنصر عرفه الإسلام، ولكن موسى بن نصير رفض الاستجابة لهذا الطلب وتابع سيره إلى دمشق، وبعد ذلك بقليل تسلم الرسالة الثانية وكانت من عند الخليفة الوليد نفسه يأمره

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢ / ٣٠، المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٦٢.

فيها بالإسراع بالحضور إلى دمشق حتى لا تحرمه المنية من شرف مشاهدة موكب النصر القادم على عاصمة الخلافة، وليتوج أيامه الأخيرة بهذا النصر المظفر^(١).

ودخل موسى بن نصير مدينة دمشق في السادس والعشرين من يناير عام ٧١٥م جمادى الأولى عام ٩٦هـ، أي قبل وفاة الخليفة الوليد بأربعين يوماً، وحرص موسى على أن يشرف بنفسه على طريقة سير الموكب وارتداء المشتركين فيه بثيابهم وبطريقة عرض الكنوز والغنائم، وأمر موسى بالأموال والجواهر واللؤلؤ والياقوت والزبرجد والجزع والوطاء والكساء المنسوج بالذهب والفضة المحرشة باللؤلؤ والياقوت والزبرجد وضمّها إلى موكب النصر مع رجاله بأرديتهم الجميلة الزاهية، ثم أقبل موسى بالذين ألبسهم التيجان حتى دخل مسجد دمشق والوليد على المنبر يحمد الله، وكان الخليفة يعاني في تلك الأيام من وطأة المرض ومع ذلك أبي إلا أن يخرج إلى المسجد متحملاً لأجل قدوم موسى بن نصير، ولما رأى الخليفة هذا الموكب استولت عليه الدهشة والعجب الشديد وصاح الحاضرون من الناس: موسى موسى!، وأقبل هذا القائد المظفر حتى سلّم على الخليفة ووقف ثلاثون رجلاً من أصحاب التيجان في موكب النصر عن يمين المنبر وشماله، على حين وقف أمام الخليفة سائر أفراد الموكب ومراكب الغنائم المقامة على عجل، وهزّ هذا المنظر الباهر قلوب الحاضرين ومشاعرهم كما أثار ذكرياتهم عن فتوح المسلمين الكبرى، وقالوا: إن الدولة الإسلامية لم تشهد منذ فتح فارس مثل هذا الموكب الرائع، ومثل تلك الغنائم الوافرة، وأخذ الخليفة يلقي خطبته في هذا المشهد الحافل وأكثر فيه الحمد لله والثناء عليه والشكر لما

(١) المقرئ، نفح الطيب، ١ / ٢٦٢.

أيده الله ونصره، وأذهل موسى الناس بما أتى به من الخيرات والغنائم والأسرى، وكان موكب النصر هذا موكبا مشهودا؛ إذ لم ير الناس من قبل مثل هذا العدد من أمراء الغرب والأسرى الأوربيين، وقد جاءوا يقدمون الولاء والطاعة لأمر المؤمنين.

وكان من أبرز ما قدمه موسى بن نصير إلى الخليفة الوليد من الغنائم التذكارية النفيسة مائدة تفوق قيمتها كل تقدير، كان طارق بن زياد قد غنمها من كاتدرائية طليطلة، وكان القوط قد تفننوا في صنعها فنسبها العرب إلى سليمان بن داود، وإنما أطلق عليها هذا الاسم كناية عن قدمها وعظم شأنها.

وكان مما قدم للخليفة الدر والياقوت أكيالا والسيوف المحلاة بالجواهر والتيجان الذهبية المرصعة بالحجارة الثمينة وأنية الذهب والفضة، وغير ذلك مما لا يحيط به وصف.

وقد أغدق الخليفة الخلع على موسى ثلاث مرات تشريفا له، كما أغدق المنح لآل بيته، ولما انتهى الخليفة من منح موسى براءات الشرف والتكريم استأذن منه هذا القائد العظيم في تقديم المشتركين معه في موكب النصر فأدخل عليه موسى ملوك البربر وملوك الروم وملوك الأسبان وملوك الفرنجة، ثم أدخل عليه رؤوس البلاد ممن كان معه من قريش والعرب؛ فأحسن الخليفة لهم العطايا والمنح^(١).

ومن الأسباب التي ذكرت في سبب استدعاء موسى إلى دمشق تخوف الوليد على المسلمين أن يكونوا في أرض منقطعة، ومحاطة بمناطق غير إسلامية وعلى اتصال بها، هي أقرب إليها من العالم الإسلامي
أو مراكز ارتباطه واستمداده وهو الذي رأيناه عارض فتح الأندلس

(١) المقري، نفح الطيب، ١ / ٢٦٢.

خوفاً على المسلمين أن يخوضوا المخاطر ويركبوا المهالك حتى بين له موسى ألا داعي للخوف.

ويرى الكثير من المؤرخين أن موسى بن نصير لم يكن يعتزم التوقف في فتوحاته عند هذا الحد وإنما كان يخطط لعبور جبال البرانس واجتياح أوروبا كلها والوصول إلى القسطنطينية وفتحها من جهة الغرب لولا أن استدعاه الخليفة الوليد إلى دمشق وأمره بالتوقف بالفتح عند هذا الحد، ويؤكد المؤرخون أنه لو قد قدر لموسى بن نصير أن يمضي قدماً في مشروعه هذا لتغير شكل النظام الدولي تماماً ولقضى على القوى غير الإسلامية، ذلك أنهم باستقرارهم النظام الدولي وقتئذ فإنهم يؤكدون أن احتمالات نجاح مشروعه هذا كانت عالية جداً، إذا لم تكن الظروف مواتية لنجاحه مثلما كانت مواتية وقتها، فمملكة الفرنجة كانت مشغولة وقتها بصراعاتها مع الممالك الأخرى ولم يكن هناك كيان سياسي واحد في أوروبا كلها يعادل قوة الدولة الإسلامية أو حتى بدايتها.

ويشير هؤلاء المؤرخون إلى أنه لما قدر للمسلمين في هذه المنطقة قائد كفاء بعد عشرين عاماً من ضياع هذه الفرصة كانت الظروف الدولية قد تغيرت لغير صالح المسلمين، فلما حاول هذا القائد إحياء مشروع موسى بن نصير هزم هزيمة ضخمة تدخل في تاريخ العلاقات الدولية بوصفها نقطة تحول وهي معركة بلاط الشهداء، وقد تكرست الآثار السلبية لعدم استكمال موسى بن نصير لمشروعه بفشل حصار المسلمين للقسطنطينية بعد ذلك بسنوات قليلة وهو ما أغلق أوروبا أمام المسلمين من الشرق بعد أن كانت قد أغلقت أمامهم من الغرب^(١).

(١) محمد عبد الله عنان، تولة الإسلام في الأندلس (٥٤/١) الصلابي، عمر بن عبد العزيز - (١٥٩ / ٣).

ولقد فشل المحللون في تفسير سبب استدعاء الخليفة الوليد لموسى ابن نصير، فبعضهم يقول: إنه أشفق على المسلمين من مخاطر هذا المشروع البحري، وبعضهم الآخر يؤكد أن الخليفة إنما خاف على سلطانه من تصاعد نفوذ وقوة موسى بن نصير وسواء صحت هذه التفسيرات أو أخطأت، فإن ما حدث بالفعل بعد استدعاء موسى بن نصير إلى دمشق، هو تفويض هدف مصيري للأمة أضاعت فيه فرصة ثمينة في فتح أوربا وجعلها تحت نفوذ الدولة الإسلامية^(١)

- خاتمة موسى بن نصير وطارق بن زياد رحمهما الله تعالى:

... تخبطت الروايات في الحديث عن نهاية موسى وما لقيه من الخليفة سليمان من الأذى والغمط والنكران وفي هذه الروايات غموض وتشويش وتناقض ومبالغات كبيرة، والصحيح أن سليمان كان عاتباً على موسى، لأمر لا نستطيع تحديده على وجه الدقة ثم رضي عنه سليمان وقربه منه وأصبح من خاصته ولا يمكننا أن نصدق أن يعاقب سليمان تابعياً جليلاً كموسى بن نصير، أسس ملكاً من عدم، وقضى سني حياته مجاهداً في سبيل الله، لمجرد قالة ظالمة أو وشاية في حقه، ولو كان سليمان فعل ذلك لكان أولي به أن يعاقبه بعزل أبنائه الثلاثة عن المغرب والأندلس، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، بل إن سليمان ابن عبد الملك كان يصطحب موسى بن نصير معه في نزواته^(٢)، وكانت بينه وبين سليمان محاورات وتساؤلات فقد قال له سليمان يوماً: ما كنت تفزع إليه عند الحرب؟ قال الدعاء

(١) الصلابي، عمر بن عبد العزيز، (٣ / ١٦١).

(٢) ابن قتيبة الدينوري، المعارف، ص ١٧٨، السيد عبد العزيز سالم، المسلمون في الأندلس، ص ١٠٧.

والصَّبْر، قال: فأَي الخيل رأيت أصبر؟ قال: الشُّقْر، قال: فأَي الأُمم أشدُّ قتالاً؟ قال: هم أكثر من أن أصف؟ قال: قال: فأخبرني عن الرُّوم، قال: أَسَدٌ في حصونهم عِقبان على خيولهم، نساء في مراكبهم، إن رأوا فرصة انتهزوها، وإن رأوا غلبة، فأوعال تذهب في الجبال، لا يرون الهزيمة عاراً. قال: فالبربر؟ قال: هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبراً وفروسية، غير أنهم أغدر الناس قال: فأهل الأندلس؟ قال: ملوك مترفون وفرسان لا يجبنون، قال: فالفرنج؟ قال: هناك العدد والجلد والشدة والبأس، قال: فكيف كانت الحرب بينكم وبينهم؟ قال: أمّا وهذا فوالله ما هُزمت لي راية قط ولا بُدّ لي جمع، ولا نُكِب المسلمون معي منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين، ولقد بعثت إلى الوليد بتور⁽¹⁾ زبرجد كان يجعل فيه اللبن حتى ترى فيه الشعرة البيضاء ثم أخذ يُعدّد ما أصاب من الجواهر والزبرجد حتى تحير سليمان، وقد وصف الذهبي موسى بن نصر بقوله: الأمير الكبير، أبو عبد الرحمن اللخمي، متولي إقليم المغرب، وفتح الأندلس، قيل: كان مولى امرأة من لحم، وقيل: ولاؤه لبني أمية. وكان أعرج مهيباً ذا رأي وحزم، وكان من اصحاب الهمم الكبيرة فقد قال مرّة: والله لو انقاد الناس لي، لقدتهم حتى أوقعهم على رومية ثم ليفتحنها الله على يدي، وكان موسى بن نصير بوسعه أن يستقل على الخلافة ويقيم ملكاً له ولأولاده في المغرب والأندلس، ولكن إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها جعله لا يفكر بذلك حتى إن يزيد بن المهلب ابن أبي صفرة سأله عن ذلك فقال موسى: والله لو أردت ذلك ما نالوا من أطرافي طرفاً،

(1) التور: الإناء.

ولكني أثرت الله ورسوله، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة^(١).
وقد توفي موسى بن نصير رحمه الله تعالى وهو متجه للحج برفقة
الخليفة سليمان بن عبد الملك في المدينة المنورة - على سكانها أفضل
الصلاة والسلام - أو في وادي القرى " العُلا، حالياً " أواخر سنة ٩٧هـ
وعمره ثمان وسبعون سنة أو يزيد (في سنة ٩٧هـ)، وقال صاحب معالم
الإيمان: توفي بالمدينة متوجهاً إلى الحج وكان قد سأل الله عز وجل أن
يرزقه الشهادة أو يموت بالمدينة فأجاب الله دعاءه، وصلى عليه مسلمة
بن عبد الملك^(٢).

لقد كانت الدنيا وما فيها صغيرة ولا قيمة لها عند موسى بن
نصير ويرجع الفضل في ذلك إلى الله ثم نصيحة العالم الجليل أبو
عبد الله علي ابن رباح اللخمي لموسى بن نصير، فقد أورد صاحب
كتاب رياض النفوس أن موسى بن نصير لما وصل من الأندلس إلى
القيروان قعد يوماً في مجلسه، فجاءه العرب يسلمون عليه، فلما
احتفل المجلس قال: إنه قد صحبتني ثلاث نعم: أما واحدة فإن أمير
المؤمنين كتب إلى يهنئني في كتابه وأمر بقراءة الكتاب، فهنيء بذلك
وأما الثانية فإن كتاب ابني قدم علي بأنه فتح له بالأندلس فتح عظيم،
وأمر بالكتاب فقريء فهنيء بذلك، وكان علي بن رباح ساكت فقال
له موسى: مالك يا علي لا تتكلم؟ فقال: أصلح الله الأمير، قد قال
القوم فقال: وقل أنت أيضاً. فقال: أنا أقول - وأنا أنصح القائلين لك
- إنه ما من دار امتلأت حبرة إلا امتلأت عبرة، وما انتهى شيء إلا
رجع، فارجع قبل أن يرجع بك، فانكسر موسى بن نصير وخشع
وفرقت جواربي عدة.. وقال صاحب الرياض: ونفعه الله عز وجل

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، (٤/٤٩٩).

(٢) المقرئ، نفع الطيب، (٤/١١)، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ص ١٨٤.

بموقعة أبي عبد الله بن رباح، فصغرت عنده الدنيا وما فيها ونبذها وانخلع مما كان فيه من الإمارة، فرضي الله عن التابعي الجليل، والإداري الحازم، والبطل المغوار، والقوي الأمين، القائد الفاتح، موسى بن نصير اللخمي الذي فتح المغرب الأقصى، واستعاد فتح المغرب الأوسط، وأنه دعم الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي وأنه فتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسا وأنه كان من أعظم قادة الفتح الإسلامي، لقد مات موسى بن نصير بعد أن ملأ جهاده - بقيادة المد الإسلامي المبارك - وديان المغرب الإسلامي " الشمال الإفريقي والأندلسي " وجباله وسهوله وهضابه ووجه دعاة الحق لإسماع ساكنيه دعوة الإسلام الخالدة، فكانت سبباً في إخراجهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، أما ترى معي موسى وهو يجوب الصحاري والوديان والسهول والجبال وقد سلخ من سني عمره خمساً وسبعين سنة ممتطياً جواده يتحرك في أعماقه إيمان بالله العلي القدير قد دفعه للجهاد والدعوة والعلم والتربية وأحكام أمور الدولة رغم ما علا رأسه من الشيب الوقور، منقاد لإصرار العقيدة السمحة، وهمة الإيمان الفتي، التي كانت سبباً في كل خير أصاب المسلمين^(١).

... أما عن البطل الكبير طارق بن زياد: فلا نكاد نعرف عما حدث له بعد وصوله دمشق غير أن رواية تذكر رغبة سليمان في تولية طارق الأندلس، وبعد ذلك قضى آخر أيامه مغموراً، فهل عاد إلى المغرب والأندلس؟ أم بقي في دمشق ولا يستبعد أن يكون عاد إلى الأندلس أو المغرب^(٢)، كان طارق من البربر وعامة جنوده كذلك، فيهم

(١) الصلابي، عمر بن عبد العزيز، (٣ / ١٦٤).

(٢) المقرئ، نفع الطيب، ١٣/٣ - ١٤، فاتح الأندلس طارق بن زياد ص ٤٥، ٤٦.

الصلابي، عمر بن عبد العزيز، ٣ / ١٦٥.

شجاعة وإقدام، فقد تربوا في أحضان الإسلام وعلى تعاليم القرآن الكريم وأصبحوا أصحاب رسالة خالدة صنعت منهم الأبطال، وقدموا في سبيل دينهم وعقيدتهم الغالي والنفيس، بل نجزم بأن الجيوش الإسلامية الضاربة التي اصطدمت بالأسبان اعتمدت بعد الله على إخواننا من البربر الذين اندفعوا خلف طارق في سبيل هذا الدين ونشره، إن العقيدة الإسلامية صهرت المنتسبين إليها عرباً وعجماً في رحاب الإسلام العظيم.

ولكن إهمال المؤرخين لطارق بن زياد لم يحرمه نصيبه من الخلود، فقد شاعت المقادير أن تحمل اسمه أول بقعة في الأندلس وطنتها قدماء وهي جبل طارق، كما سمي بحر الزقاق باسم مضيق جبل طارق، وانتقلت هذه التسمية إلى اللغات الأوروبية جميعها بصيغها محرقة تحريفاً بسيطاً.

ولم تشر الروايات العربية إلى مصير يوليان الذي مهد لفتح الأندلس، وتذكر بعض الروايات أنه عاد إلى سبته وأقطع ما حولها من الأرض، وظل أميراً على سبته نظير خدماته، ولكنه بقي نصرانياً هو وبنوه الأقربون، أما ذريته فيقال إنها دخلت الإسلام بعد ذلك، أما أبناء غيطشة فقد أقطعوا ما كان لأبيهم، وعامل العرب ابني غيطشة (إيفا وسيزبوت) معاملة حسنة فعينوا أوباس ابنه مطرانا علي طليطلة والأندلس، وتوفي إيفا عن ابنة تدعى سارة وطفلين صغيرين فاغتصب عمهما سيزبوت ميراثهم، فرحلت سارة إلى دمشق مع أخويها، وشكت أمرها إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، فأنصفهما وأمر والي الأندلس أبا الخطار برد ميراثهما إليهما، وفي دمشق تزوجت من عيسى بن مزاحم، وعادت إلى الأندلس مع زوجها، ورزقت بولدين إبراهيم وإسحاق اللذين أحرزا مكانة عالية. وإلي سارة ينسب مؤرخ الأندلس الشهير ابن القوطية^(١).

* * *

(١) ابن الأثير، الكامل، ٤ / ٢١٣، المقرئ، نفح الطيب، ١ / ٢٤٥.